

'حرب لبنان 1975 - 1990' لعبد الرؤوف سنو: النظام الطائفي منع لبنان من التحول الى دولة حديثة

جاك نعوم
29/01/2010



الحوادث والوقائع التي ضربت لبنان خلال حرب الخمس عشرة سنة (1975-1990)، والتي لا تزال آثارها ونتائجها تفعل فعلها في الحياة والمناخ السياسي والمعيشي في هذا البلد، شكلت مادة المؤلف الذي أصدره المؤرخ الدكتور عبد الرؤوف سنو، الأستاذ في الجامعة اللبنانية.

يقع الكتاب في مجلدين من القطع الكبير تفوق صفحاتهما معاً 1800 صفحة، عدا عشرات، بل مئات الصفحات من المصادر والمراجع والمقابلات والجدول والبيانات والحواشي التي تتضمن التوضيحات. ويضاف إلى ذلك كله، تواجد المؤلف في وطنه لبنان منذ منتصف الثمانينات من القرن الماضي، بعد حصوله على درجة الدكتوراه من جامعة برلين الحرة، ليكون شاهداً حياً ومعاشياً للتطاحن والفوضى التي قوضت البلد وشردت أبناءه بعد مصرع 100 ألف منهم، عدا الجرحى والمعوقين.

إن كل عوامل الحرب وتطوراتها بأبعادها السياسية والاجتماعية والمعرفية وتأثيراتها الحياتية تفاعلت مع بعضها البعض وشكلت المادة التي استند إليها المؤلف للقيام بهذه المهمة الماراتونية الصعبة، وهي التأريخ لمرحلة مهمة ومصيرية من تاريخ هذا الوطن المعذب، ما يضع سنو في مصاف عمالقة مؤرخي هذا العصر. اذكر منهم على سبيل المثال ونستون تشرشل في تاريخه عن

الحرب العالمية الثانية، والباحث الأميركي وليم شيرر ' صعود واندثار الرايخ الثالث في ألمانيا 1933-1945'. وأخيراً وليس آخراً، يشكل كتاب حرب لبنان... مدونة صادقة وحية لعريضة جماعية قامت بها القوى الظلامية في البلاد، من أمراء الموت، ووجهاء الطوائف ومن ورائهم شلل، من وعاظ ودجالين، ومما سموا بإعلاميين أو أصحاب أيديولوجيات، يساندهم في ذلك ظلامية مجتمع يرتع تحت سداجة آبائية (Patronic) قوامها الطاعة العمياء والانبطاح المطلق والتزلف، أو التزلم للإجنبي باختلاف ألوانه ومصالحه ومشاربه، بعد أن جعله السيد المطلق والحامي الأعظم... كل ذلك نتيجة رواسب الخنوع والعمالة التي ورثتها أجيال اللبنانيين خلال آلاف السنين من الاحتلال والاستبداد والتي تشكل الطائفية البغيضة عاملاً من عواملها.

المجلد الأول من كتاب سنو الماراتوني، يشكل حوالي 850 صفحة، يخصصه المؤلف لشرح وقائع وأحداث تفاعلت على الأرض، أو من وراء الكواليس، فيظهر العوامل والدوافع التي تؤدي إلى وضع الإصبع على المعضلة اللبنانية، حيث يرى أن الطائفية عامة هي المشكلة التي أدت إلى الانفصام المسيحي الإسلامي في لبنان، والتي كانت نتيجتها الفورية منذ بداية السبعينات تصدع 'الميثاق الوطني' العائد لسنة 1943. كما يكرس المؤلف حيزاً واسعاً ورحباً لشرح وتحليل التطلعات نحو الخارج، وخصوصاً إلى قوى الجوار، وكيف أن الفيسفساء الطوائفية الاجتماعية كانت تتطلع إلى هذه القوى للتحالف معها في سبيل الاستقواء على بعضها البعض، أو العمل على تحقيق حلمها الأكبر، وهو الانعزال من خلال تشييد الدويلات الطائفية أو المذهبية، الذي كان يراود مثلاً موارد لبنان بقيادة بشير الجميل بتفويضهم له التعامل مع إسرائيل والاستفادة من إمكانياتها في سبيل إنشاء الكانتون المسيحي العتيد، كما بدا له للوهلة الأولى.

ولن تكتمل لوحة الاحتقانات الطائفية والتداعيات الميدانية التي أدت نتائجها إلى التقاتل اللبناني اللبناني واللبناني الفلسطيني في نيسان/أبريل 1975، من دون التنويه إلى الآلية التي أفرزها هذا النظام الأبوي السلطوي والتي يحجبها ستار خطاب خلاب قام بصياغته شلة من الوعاظ والمتكلمين بمواكبة مرتزقة وفرسان الكلام وأبوقة الخارج. وفي النهاية، كلن هذا الخطاب الإيديولوجي العنيف يفعل فعله في الناس، فيشحنهم ويدفعهم إلى التقاتل، عن اقتناع وغير اقتناع.

إنها الديمقراطية التوافقية المضللة، هذه البدعة الفريدة التي تجعل الناس يتقاتلون وتمنعهم من حكم أنفسهم وفق 'ديمقراطية الأكثرية' التي هي العرف السائد في جميع بلدان العالم المتحضر الذي يطمح لبنان أن يكون منها. هذه الديمقراطية التوافقية التي ينتقدها سنو، ليست سوى مُجسم رهيب يستوعب كل تناقضات المجتمع اللبناني المبني على طائفية نزاعية غير 'بناءة' (بالإذن من المرحوم كمال الحاج صاحب كتاب الطائفية البناءة). (فالقوى الطائفية في لبنان تحمل المدفع في يدها اليمنى والقلم للتوقيع في اليد اليسرى على توافق مصطنع؛ فتبدأ عندها حفلة 'روليت روسية' في جو من الرعب وحب الغدر، فإذا فشل الكلام أو التوافق، أنقضى كل واحد على الآخر. وما كاد أن يحصل في لبنان في الأمس القريب، حصل بالفعل بعد أن هُيء له قبل الانفجار في عام 1975. وأخيراً، إن هذه الديمقراطية التوافقية تشكل الوباء الأسود والتي امتصت عنفوان الدولة وأجبرتها على توقيع اتفاق القاهرة عام 1969 وبالتالي سلخ رقعة من الأرض اللبنانية لتقوم عليها 'فتح لاند' - وتنتقل منها المقاومة المسلحة الفلسطينية أو العمل الفدائي، كما كان يُقال في تعبير ذلك الزمان. فكانت المقاومة الفلسطينية هي التي كشفت عن عمق التناقضات الطائفية اللبنانية، وقرعت جرس الموت

للميثاق الوطني اللبناني، وتدفن بالتالي آخر أمل للتواصل بين مسيحيين (موارنة) ومسلمين (سنة).
والنتيجة هي غياب الدولة وعجز الطوائف عن التواصل والالتقاء، وهو ما أصاب به المؤلف في
تعليله لمقدمات الحرب وأسبابها.

لحرب لبنان مرحلتان، تظهر حدودهما جلية واضحة بعد قراءة كتاب الدكتور سئو. المرحلة الأولى،
فهي مرحلة التقاتل الفعلي الذي فجرته 'بوسطة' عين الرمانة. فتبدأ منذ تاريخ وقوعها في منتصف
نيسان/أبريل 1975 لتنتهي عشية انتخاب أمين الجميل رئيساً للجمهورية بعد مصرع شقيقه بشير،
الذي قُتل قبيل تبوئه كرسي الرئاسة، فخلفه أمين بإجماع طائفي لبناني. وهذه المرحلة هي مرحلة
'البنة' الصراع الداخلي، وهو التعبير القح الذي دخل منذ حينه في القاموس السياسي الدولي للتعبير
عن الدول الخائبة والفاشلة: من الاتحاد السوفياتي آنذاك في أواخر عهده، إلى دولة الصومال اليوم.
وهي تنسم بتسلط أمراء الحرب على الدولة المركزية لتقليص عنفوانها وهيبته، وكذلك تصغير
حجم رئيس الدولة إلى مقام عمدة العاصمة، والتلاعب بوحدة الجيش الوطني لتقسيمه، وأخيراً وليس
آخرًا الاستعانة بالخارج، حتى بالعدو- كلها وقائع وأحداث عاجها د. سئو بكل دقة وموضوعية
ورصانة علمية مجردة، مظهرًا ملابساتها وخلفياتها من خلال وثائق ومراجع وفيرة ومتعددة على
مساحة المجلد الأول، منها: 'حرب السنين'، والجوء إلى سورية للتدخل العسكري في البلد، وحرب
الفنادق والقتل على الهوية، والانقلاب العسكري للعميد عزيز الأحذب، واجتياح إسرائيل الأول
للبنان عام 1978 واجتياحها الثاني عام 1982، ثم استجارية حزب الكتائب اللبنانية بالدولة العبرية
لتحقيق دويلته المسيحية برئاسة بشير الجميل، ثم انقلابه الأخير عليها بعد انتخابه لرئاسة
الجمهورية. ويختم سئو هذه المرحلة (الأولى) باغتيال بشير الجميل وخروج المقاومة الفلسطينية من
بيروت، ومذابح صبرا وشاتيلا التي قام بها مرتزقة الكتائب تحت أعين الإسرائيليين ومباركتهم لها،
فضلاً عن قدوم القوات الدولية واحتلال الإسرائيليين لبيروت. ويرى سئو أن هذه المرحلة اتسمت
بمحاولات التسويات والمصالحات المستوردة من الخارج بين الميليشيات، والتي كانت تنقض قبل
أن يجف حبر الموقعين عليها. كل هذا وراء برقع لماع بعبارات إنشائية وإيديولوجية، في وقت كان
فيه الفتناء الميليشياوي هو السيد من فوق السطح يُطلق النار على رقاب الأبرياء العزل في الأحياء
والأزقة وعند تقاطع الشوارع، فيما تقوم عناصر الحاجز الميليشياوي بقتل 'المواطنين على الهوية'،
بعد أن صدقوا الهدوء المصطنع بوقف إطلاق النار.

وفق سئو، ابتدأت محطات الفوضى المطلقة، وهي المرحلة الثانية والنهائية، مع اخفاق 'اتفاق 17
أيار/مايو 1983'، وهو الاتفاق الذي أبرمه أمين الجميل مع المسؤولين الإسرائيليين يجعل لبنان
محمية عند الدولة العبرية، ويقضي بانسحاب الجيوش الأجنبية من لبنان، إسرائيلية كانت أم سورية.
لكن عيب هذا الاتفاق أن الجميل اعتقد فعلاً بنية إسرائيل بالانسحاب من جنوب لبنان، في حين أن
الرئيس اللبناني لم يأخذ موافقة سورية على الاتفاق قبل إبرامه. وكان الأجدى له أن يصيغ الاتفاق
مع الولايات المتحدة ويكون بضمانتها كقوة عظمى وحليفة رئيسية للدولة الصهيونية. وكانت النتيجة
أن رفضت سورية وإسرائيل الانسحاب من لبنان، وبقي كل شيء على حاله، اللهم إلا تصاعد التآكل
الداخلي، الذي بدأ مع تقليص منصب الرئيس الجميل من قبل سورية والميليشيات الحليفة لها وكذلك
ميليشيات 'المنطقة الشرقية' إلى مقام عمدة بيروت، مع التكتيف المنظم لاستباحة مرافق الدولة
ومؤسساتها وتفرغها إلى الحضيض، بالتزامن مع تصعد القتال الطائفي والعشائري، إلى الاندثار
والتلاشي شبه الكاملين للبنان، دولة ومجتمع.

وتتخلل هذه المرحلة مبادرات 'لمّ الشمل' التي أنتت من الخارج العربي من أجل إنهاء الحرب عبر التوصل إلى اتفاق بين فرقاء النزاع. وكان أهم المبادرات تلك السعودية في هندسة مؤتمر جنيف ولوزان (سويسرا) عامي 1983 و1984 بين الفرقاء والطوائف اللبنانية المتخاصمة من جهة، ومن سورية وكبار المسؤولين لما تبقى من الجمهورية اللبنانية المتأكلة من جهة أخرى. ولم تسفر هذه اللقاءات عن أية نتيجة عملية، بل كانت حوار الطرشان، كما يعلق على ذلك المؤرخ سنو، ذلك إن اللقاءات اقتصرت على القوى التي اغتصبت سلطة الدولة وشرعيتها، أو على قوى تقليدية غير فاعلة. وبعد أن عالج المؤلف في صفحات عديدة تخاذل هذه القوى، رأى أن عدم الوصول إلى تحقيق السلام في هذه المرحلة يعود إلى أن من حضر من المؤتمرين لم يكونوا ممثلين حقيقيين للطيف الاجتماعي المتقاتل. وقد علق على ذلك وزير خارجية سورية آنذاك: 'لا المسيحيون ولا المسلمون يمثلون طوائفهم في الواقع'. وهذا ما دفع النظام السوري أن يخرج تسوية للأزمة اللبنانية في نهاية عام 1985 (الاتفاق الثلاثي) تقوم على أكتاف زعماء الميليشيات (جنبلط بري حبيقة)، مستعيداً القوى التقليدية. فوقفت إسرائيل ومن وراءها من قوى مارونية لإفشال هذا الاتفاق ونجحوا في ذلك. وكان هذا رداً على إفسال سورية والميليشيات المتحالفة معها اتفاق 17 أيار/مايو 1983، لأنه 'صنع في إسرائيل'.

ومن معالم هذه المرحلة الأخيرة من حرب لبنان، هي ضراوة المعارك وانسلاخ الطوائف عن بعضها البعض، وقيام الصراعات داخل كل من الميليشيات الطائفية المسيحية والإسلامية، بعد أن عجزت هذه، مسيحية أم إسلامية، عن تأمين وحدتها الداخلية ووحدة أبنائها لتفقد بالتالي مسوغات الدفاع عن هويتها، عربية أم لبنانية أم غير ذلك، والتي من الأسباب الرئيسية لاندلاع حرب لبنان. هكذا، تقاطلت القوى الميليشياوية ضد بعضها البعض، كل في عرينه الطائفي: القوات اللبنانية ضد حزب الكتائب، وشيعة حركة أمل ضد شيعة حزب الله الإيراني في لبنان، وشيعة أمل ضد الحزب التقدمي الاشتراكي، والتنظيمات الأخران ضد تنظيم المرابطون السنّي، وهكذا دواليك.

ومن معالم المرحلة سالفة الذكر أيضاً، قيام الشيخ سعيد شعبان بالتحالف مع فلسطيني عرفات، وانسلاخ طرابلس عملياً عن الجسم اللبناني وإعلانها إمارة إسلامية، وإرساؤه نظاماً شديداً التعصب، إلى أن قامت سورية ومعها أحزاب لبنانية موالية، كالقومي السوري والشيوعي وغيرهما بالقضاء على الحركة السلفية.

واللافت، هو الاغتيالات التي رافقت هذه المرحلة، من بشير الجميل إلى رشيد كرامي وحسن خالد، مفتي الجمهورية اللبنانية. وشملت قافلة الاغتيالات سياسيين وصحافيين وزعماء أحزاب، فضلاً عن أجانب ودبلوماسيين، ولا ننسى الخطف والقتل على الهوية لمدنيين عاديين ذنبهم أنهم سعوا وراء لقمة العيش. وفي خضم ذلك، كانت صراعات الميليشيات تتحول إلى حروب حقيقية، منها حروب الانقلابات العسكرية، وحروب المرافئ والمرافق، وحروب الجنرال ميشال عون ضد سورية وضد القوات اللبنانية، وقبلها حروب الجبل والشحار الغربي وشرقي صيدا وإقليم الخروب، إلى التنافس والمواجهات بين حركة أمل وحزب الله في الضاحية الجنوبية منذ عام 1988.

أخيراً، في المجلد الأول (السياسي)، يختم سنو بالحديث عن اتفاق الطائف الذي أنهى الحرب برعاية سعودية، وفتح الباب لانتخاب رينه معوض رئيساً شرعياً للجمهورية، ثم اغتياله بعد 17 يوماً على

اعتلائه سدة الرئاسة، وكأن قدر لبنان أن يدخل في من جديد في مصير مجهول. لكن الرعاية العربية والقرار الدولي بوقف حرب لبنان، أمكنهما انقاذ البلد، رغم أنف الجنرال عون الذي اغتصب السلطة في بعدا. وما لبث عون نفسه أن سقط أمام جحافل السوريينالذين دخلوا المنطقة الشرقية بضوء أخضر أمريكي - إسرائيلي في 13 تشرين الاول/أكتوبر 1990، ففر إلى فرنسا تاركاً جيشه في ساحة الوغى، ومعه 74 مليون دولار من خزينة الدولة (من دون تعليق). الجزء الثاني من كتاب سنو بصفحاته التي تصل إلى 900، يعطي، بوفرة معلوماته وجداوله وتحليلاته العميقة ومصادره، تقريراً وافياً وكافياً قلماً قام باحث بتدوينه بهذه الشفافية والشجاعة والنزاهة. إنه مدونة التداعيات والمعاناة الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية التي أنتجها هذا التطاحن خلال 15 سنة من تاريخ الحرب. هذا الانهيار الذي ساد لبنان كان نتيجة حتمية للتفكك والتصدع اللذين لحقا بالبلد، مؤسسات ومرافق وتعايش طوائفي. ويستحق هذا العمل الماراتوني (أي المجلد الثاني) لوحده دراسات طويلة لإبراز نقاطه وتفنيده والتعميق فيه. فيعجز هذا المقال عن الإحاطة بكل جوانبه.

يبدأ المؤلف في المجلد المذكور بدراسة مراحل انهيار الاقتصاد اللبناني وتحليلها، وكيف أن الحرب قلصت دور بيروت المركزي والمالي والمهم محورياً لمنطقة الشرق الأوسط، إثر فرار رؤوس الأموال والمصارف من خلال ما لحق بوسط بيروت من دمار وخراب، فضلاً عن انعدام الأمن. ويرى سنو أن تأثير الحرب في الاقتصاد اللبناني بشكل كبير جاء بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982. فكانت النتيجة المتوقعة هي تصاعد التضخم وانهيار العملة الوطنية، بعد أن كانت تُعدّ، إلى جانب الدولار الأميركي و'البوند' الاسترليني، من أعمدة العملة الصعبة. وواكب هذا الانهيار تفريغ بيروت وحدوث انفصام في مؤسسات الدولة وإدارتها واستباحتها من قبل الميليشيات، وإعادة انتاج هذه المؤسسات الوطنية في حلل ميليشياوية، في عملية 'خصخصة' فريدة من نوعها قوامها 'الخوة' و'البخشيش' و'البلص'، والهدف في نهاية الأمر ملء خزائن الدويلات الميليشياوية بالأموال. كذلك، حققت الميليشيات مداخل من خلال خطوط التماس والمعابر، عبر ما كان يُفرض عليها من مكوس. وكان لا بد للدكتور سنو من وضع لوائح وجداول حول المرافق غير الشرعية التي أنشأتها الميليشيات، وأهمها المرافق غير الشرعية على طول الساحل اللبناني واستخدامها في التهريب السلع والمخدرات بكل أنواعها التي راجت بشكل واسع، ووضع اليد على المرافق الشرعية، وفي مقدمها مرفأ بيروت. ويعتقد الدكتور سنو أن الميليشيات، سواء أكانت متنافسة أو متوافقة ضمناً، حققت ارباحاً خيالية جراء اقتصادها الموازي والاستحواذ على إيرادات الدولية ومواردها والمصادرات والخوة وتجارة الأسلحة والتجارة السوداء، فيقدرها بحوالي 50 مليار دولار.

وعلى غرار المرافق، يتحدث سنو عن انشطار الإعلام اللبناني المرئي والمسموع إلى حوالي 200 إذاعة ومركز تلفزيوني، منها العقائدي والديني، وأهمها التجاري. وفي كل الأحوال، تم التطرق إلى الخسائر التي لحقت بالاقتصاد اللبناني بعد فتح الأسواق اللبنانية أمام السلع الإسرائيلية، في ظل الاحتلال الإسرائيلي لجنوب لبنان. كما تناول سنو الضيق الاجتماعي لدى الأسر اللبنانية وتأثيره في إجبارها على تغيير قيمها وعاداتها وسلوكها الاجتماعي، حتى دفع أبناءها إلى الانضمام إلى الميليشيات. ولا ينسى سنو الانهيار في الحقل التربوي، من مدرسي وجامعي، ويخصص فصلاً كبيراً (حوالي 150 صفحة) للهجرة الخارجية التي شملت حوالي 900 ألف لبناني، وذلك بسبب الظروف الاقتصادية والأمنية والسياسية، والتهجير الداخلي من منطقة إلى أخرى، بعد أن جرى

اقتلاع أسر من جذورها المناطقية والعائلية.

كل هذه الحوادث، أرخ الدكتور سنو وقائعها وتطوراتها من خلال مصادر ومراجع وجداول وتخطيطات بيانية لا تقبل الشك في صحتها. وينتهي هذا المجلد القيم بتخصيص المؤلف الفصل السادس عشر لوصف الأعمال التي قامت بها الجمعيات الخيرية المحلية والمؤسسات الأجنبية ككاريتاس وتلك التابعة للأمم المتحدة لمساعدة المتضررين. مع ذلك، يرى سنو أن الميليشيات لم تترك للمجتمع المدني هامشاً للتحرك السياسي وإنهاء الحرب، بل اقتصر دوره على بلسمة الجراح وتقديم المساعدات للمتضررين من الحرب.

أخيراً، يطرح سنو في نهاية كتابه السؤال الصعب: كيفية إلغاء نظام طائفي سياسي اجتماعي من دون تهميش الطوائف المسيحية وإثارة مخاوفها من هيمنة إسلامية؟ وكيف يمكن جعل نظام لبنان ديمقراطياً أكثر؟ من دون تسلط المسلمين عليه؟ بمعنى آخر: كيف يمكن جعل أبناء الطوائف الدينية ينظرون إلى أنفسهم على أنهم لبنانيون أولاً، ويرون لبنان الوطن في هويتهم؟

كتاب الباحث والمؤرخ اللبناني الدكتور عبد الرؤوف سنو، الذي أمل أن يُقرأ من أبناء الجيل الذي لم يعاصر الحرب ليتعرف إلى الوقائع الحزينة لحرب الـ 15 سنة، خصوصاً أننا على أبواب السنة الخامسة والثلاثين لاندلاع حرب لبنان، (13 نيسان/أبريل 2010)، هو بمجلديه عمل قيم ووافر . إنه عمل جبار مؤسساتي قام به فرد واحد على مدى أكثر من عشر سنوات. فسئو يتسم بشجاعة علمية نزيهة قلما تُرى بين مؤرخي العصر في مجتمعنا أو مجتمعاتنا العربية التي تقوم على التهريج أو الهيجاء والديماغوجية الفارغة من معناها. يرى المؤرخ سنو في كتابه عن حق أن الطائفية هي رأس الأفعى والمسؤولة الأولى عن احتدام هذه الفتنة الضروس التي لا تزال تنخر بنيان المجتمع اللبناني وبعض المجتمعات العربية، كمصر والعراق والسودان وغيرها. إن المأساوي في حرب لبنان، هو عجزها عن الدخول في المرحلة التاريخية، لتصبح حدثاً تاريخياً أليماً فحسب يجري التعلم منه لتلافي أزمات الحاضر. وهذا يجعل هناك إمكانية لإنتاج ذاتها بالسيناريوهات نفسها أو ما شابه، تحت كل لون من ألوان الحكم والسياسة. إن كتاب سنو، في رأيي، هو مرجع رئيسي لكل من أراد التعرف إلى تاريخ لبنان المعاصر والتعمق في فهم مأساة لبنان ومحنته المستديمة. فعسى أن يُترجم هذا العمل الموسوعي الهام، بتحليلاته العمودية الرصينة وحياديته وموضوعيته، إلى اللغة الإنكليزية، كي يشمل الإطلاع القراء ومراكز الأبحاث والمؤسسات الدولية الذين لا يتقنون اللغة العربية.

صحافي من لبنان يقيم في ألمانيا